(ذكر) أن المتوكل بن الافطس فر اليه شخص من بني هود مغاضبا لابن عمه ملك سرقسطة فآواه وأحسن اليه ثم اختبره فرآه أهلا للولاية فولاه فقال له أحد وزرائه كثيرا هذا في تغيير قلب قريبه يا مولاي تسخط قادرا في حق عاجز وتفرط فيمن تحتاج اليه كما يحتاج الينا وتغتبط بمن لا تحتاج اليه بل هو موكل علينا فقال له المتوكل الذي قلت حق ولكن كيف يكون اقتناء المكارم (روى) أن أنوشروان غضب على وزيره بزرجمهر فسجنه في بيت كالقبر وصفده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف وأمر أن لا يزاد في كل يوم عن على قرصين من الخبز وكف ملح جريش ودورق ماء وأن تثقل ألفاظه اليه فأقام شهورا لا تسمع له لفظة فقال أنوشروان ادخلوا عليه أصحابه وأمروهم أن يسئلوه ويفاتحوه الكلام وعرفوه فدخل اليه جماعة من المختصين به فقالوا له أيها الحكيم نراك في هذا الضيق والحديد والشدة التي دفعت اليها ومع هذا فان سحنة وجهك وصحة جسمك على حالها لم تتغير فما السبب في ذلك فقال اني عملت جوارش من ستة أخلاط فآخذ منه كل يوم شيأ فهو الذي أبقاني على ما ترون فقالوا فصفه لنا فعسى أن نبتلي بمثل بلواك أو أحد من اخواننا فنستعمله أو نصفه له فقال الخليط الاول الثقة بالله والثاني أن كل مقدر كائن والثالث الصبر خير مما استعمله الممتحن والرابع ان لم أصبر فأي شيء أعمل ولم أعن على نفسي بالجزع والخامس قد يمكن أن أكون في شر أصعب مما أنا فيه والسادس من ساعة الى ساعة فرج . (من كتاب عين الادب والسياسة)

(الباب الثاني في الاخلاق)

(فصل) في مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم وبوجبانه من لوم (فنقول) أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التآلف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وحكي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفني فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مدرة
وفي غد بعد حسن صورته * يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه وتخوته * مابين ثوبيه يحمل العذرة

وقد كان المهلب أفضل من أن يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ماحكي عن نافع ابن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من هذا فضل أو ينفع فيه عذل وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى مايكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد حكي عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فتقربت اليه بدمائهم ولما ولي مقاتل ابن مسمع سجستان أتاه الناس فأعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي لما خوف أهل البصرة أمر فخطب خطبة أوجزفيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا مثلك فقال لقد كافتم الله شططا ومعبد بن زراعة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هناة مثلي يكون من عبيد الله وأبو ثمال الاسدي أضل راحلة فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الي راحلتي لاصليت له صلاة أبدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هؤلاء وكيف أفضى بهم العجب الى حق صار وبالا عليهم نكالا في الاولين ومثلا في الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر مافطر عليه من جبلة وبلي به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يامظهر الكبر اعجابا بصورته * أنظر خلالك فان التن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا * أقصر فانك مأكول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير و يستصغر معها كل كبير وقال محمد بن على لا ينبغى للشريف أن يرى شيأ من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها تائها وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر أسباب لعل أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء وحكى أن قوما مشوا خلف على ابن أبى طالب رضى الله عنه فقال ابعدوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب فوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فاصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فاضل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضى الله عنه ويحك يا ابن عوف انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فاردت أن أعرفها نفسها وللاعجاب أسباب فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا يزكى رجلا فقال له قطعت عطاء لو سمعها ما أفلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكماء من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكى على الله أحدا وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة

عجبت لمن قبل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره افراط مادحه * لا يغلبن جهل من أطرا لك عملك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به * وأنت أعلم بالمحصول من ريك

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان النفس ميالة لحب الثناء وسماع المدح وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولهابها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته وليكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا امانين ولا ممادحين ولا ممقاوتين وحكي الاصمعي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه اما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسروره بنفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاي ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظ * ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد اخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا

ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا وقيل لبعض الحكماء أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي وقيل في منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب تودد وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة وينيها عن البغض وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها ازكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب وقد قال بعض الحكماء في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغاء الناس في الولاية رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا

(فصل في حسن الخلق) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بادوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدنى واللسان البذى وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء وقال بعض الحكماء عاشر أهلك باحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الاعمار وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ماذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طليق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبري * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر الذى هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لان يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى * الاعدوا أو صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا اما من لؤم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله

وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر إما لشدة أسف أو لقلة صبر حكى حميد الطويل أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشى

غضبان يعلم أن المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألنى * فأكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت أنست منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم أن الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشئ الفقر والمرض والموت ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر وقال أبو تمام الطائى

وأعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر
فيفرح بالشئ القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالامانى وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء وقد قال أبو العتاهية

حرك منالك اذا اغتممت فانهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى رأس أموال المفاليس

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم

وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فما تأكل الشهد الا بسم
فكم قد ردب في مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى
واذا الشيخ قال اف فما مل حياة وانما الضعف ملا
واذا لم تجد من الناس كفوا * ذات خدر أرادت الموت بعلا
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فيالت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في آلة الجسد كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن اثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ماضاهاه وقال منصور النمري

ما كنت أوفي شبابي كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم * تشجي لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما * أبقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى * لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا على المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

(فصل في كتمان السر) اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم أحوال الصلاح روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سرك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه وقال بعض البلغاء ما أسرك ما كتمت سرك وقال بعض الفصحاء مالم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أسيد

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من أظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهار سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه وتفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسره ولم يقدر على صبر وقال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر أضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما نزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغدر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرقته واعلم أن من الاسرار ما لا يستغني فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر في اختياره من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أذاع من سره كبيرا في جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان أحراز الاموال منيعة وأحراز الاسرار بارزة يذيعها اللسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول ووده موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب، وقيل في منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن وقيل في منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعه وطريق الى الاشاعة لامرين أحدهما ان اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لم ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجوا أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كنى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال المئام وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أجد الخبر وأحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * منه الضلوع على الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودع سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا

ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما احطت به خبرا

وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى أرى المدفون ينتظر النشرا

(لابى الحسن البصرى الماوردى)

الباب الرابع فى المباحث الادبيه

(فى أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)

والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ماوراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى